الاسلام والمدنية والعلم

طريقة النظر فى العلم وفى الاسلام

بقية ما نشر فى العدد الممتاز

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

بقى أن نقارن بين طريقة العلم فى دراسة الفطرة والطريقة التى شرعها الاسلام للانسان فى النظر لنرى إن كان بينهما من التطابق مثل الذى تبين فى المقال السابق أنه موجود بين العلم والاسلام

والأصل الأول عند العلم فى النظر هو العقل ، وكذلك هو فى الاسلام . إن القرآن الكريم كله ينطق بأن الاسلام قام على العقل ، وحاكم إلى العقل ، وأمر باتباع العقل ، بمختلف أساليب البيان ؛ فتارة يتلطف ويرغب فى استعمال العقل والفكر : (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) ، (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) . وتارة يظهر التعجب الشديد والتأفف من تعطيل العقل : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) ، (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عُمُرا من قبله ، أفلا تعقلون) . وتارة يمدح أهل العقل ويخصهم بالخطاب : (وما يذّكر إلا أولو الألباب) ، (كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) ، (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) ؛ ثم تارة يسلك سبيل الذم البالغ لمن يهملون عقولهم ويعطلونها : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) ، (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً) وفى هذا ما فيه من توكيد ناحية العقل وتنبيه الانسان إلى أن من أخص خصائصه التفكير والتدبر والفهم والتعقل ، فلا ينبغى له التنزل عن أخص خصائصه بتعطيل عقله وإلا فقد تنزل عن انسانيته وصار فى الأنعام أو شرا من الأنعام

ولقد بلغ من إكبار الاسلام العقل وتوكيده واتخاذه أصلاً ومرجعاً أن أباح للمسلم إذا تعارض العقل والنص أن يؤول النص إلى ما يقضى به العقل . والعقل هنا طبعاً ليس هو عقل الفرد ، ولكن عقل المجموع ؛ ليس هو العقل الخاص الذى يجوز عليه الخطأ ، وكثيراً ما يخطئ ، ولكن هو العقل العام الذى يستحيل عليه الخطأ ، والذى لا يقتنع بشىء إنه الحق إلا إذا قام عليه الدليل القاطع . فتشريع الدين تأويل النص إلى ما يوجبه العقل أو بالأحرى إلى ما يطابق ما ثبت عند العقل بالدليل القاطع ، هو التنفيذ العملى فى الاسلام لمبدأ استحالة التناقض بين الحقائق ولمبدأ وجوب الأخذ بالحق كيفما ظهر وأينما كان . فالحق فى العلم وفى الاسلام أحق أن يتبع لذاته لا لغيره ، وفى سبيل الحق يجب أن يجاهد الناس ، وعلى الوصول اليه يجب أن يتعاونوا ، وبه إذا وصلوا اليه يجب أن يستمسكوا . هذا هو أخص خصائص الروح العلمية فى ميدانها ، وهو فى الوقت نفسه أخص خصائص المؤمن حتى فى المعاملة . فان الصفات التى ضمن الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلم بها الجنة إذا هو ضمنها من نفسه فى الحديث الكريم : « اكفلوا لى بست أكفل لكم بالجنة ؛ إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا ائتمن فلا يخن ، وإذا وعد فلا يخلف : غضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم » هذه الصفات ليست فى صميمها إلا أخذاً بالحق فى أعم صوره ، واحتراماً له ووقوفاً عنده

لكن نفر العلم الحديث ليس هو جعله العقل أصل الأصول فى النظر ، ولكن هو ضبطه طريق النظر العقلى ، حتى صار العقل به فى مأمن من الضلال . إن قدماء العلماء والفلاسفة كانوا أيضاً يكبرون العقل ويتحاكمون اليه ، وهذا المنطق القياسى الذى يعين الطريق الذى يجب أن يسلكه العقل فى الاستنتاج ليكون بمأمن من الخطأ ، هو من وضع أولئك القدماء . فليس للعلم الحديث على العلم القديم فى هذا فضل ، بل الفضل فى توضيح طريق الاصابة فى الاستنتاج ، هو للعلم القديم أو للفلسفة القديمة كما تشاء أن تقول . لكن الذى غفل عنه القدماء ، وانتبه اليه المحدثون ، هو وجوب الاستيثاق من صحة المقدمات قبل القول

صحة النتائج ، ولو صحت طريقة الاستنتاج . كان القدماء يعنون كل العناية بالاحتياط من الخطأ فى الاستنتاج ، ولو أنهم عنوا بصحة المقدمات عشر معشار تلك العناية لتغير تاريخ العلم ، ولتغير تاريخ العالم بالتبع ، ولما تأخر الرقى العلمى كل تلك القرون ، لكن أكثر القدماء كانوا فيما يظهر يتغالون فى الاعتماد على العقل وحده حتى جعلوه كل شىء ، وجعلوه مستغنياً عن كل شىء . فالعالم أو الفيلسوف كان يرى كافياً فى طلب الحقيقة أن يجلس ويفكر ، ثم يفكر ، كأن الحقائق كلها موجودة كامنة فى النفس أو الروح ، وكأن ليس على الانسان إلا أن يستثيرها بالتفكير . من أجل ذلك لم تعن الفلسفة القديمة أو العلم القديم إلا بصحة التفكير على الأخص ، وهى العناية التى أدت به إلى اكتشاف قوانين التفكير ووضع علم المنطق القياسى . أما المقدمات فكان العالم أو الفيلسوف يكتفى من الاستيثاق منها بالاقتناع النفسى والرجوع بها إلى ما يبدو له أنه بديهى لا يحتاج إلى برهان . ومن هنا دخل فى العلم القديم أو الفلسفة القديمة الشىء الكثير من الباطل ، أو على الأقل مما هو غير ثابت ؛ دخل فيها على أنه حق لا شك فيه ، فكان عبئاً ثقيلاً على العقل عاقه عن التقدم الحقيقى طوال تلك القرون

ولقد جعلت تلك الطريقة لأمر تميز الحق من الباطل فى العلم القديم من الوجهة العملية بيد المصادفة لا بيد العقل ، فكان الانسان إذا صادف الصحة فى مقدماته الأولى أو بديهياته التى يُرجع اليها مقدماته نجا من الخطأ بعد ذلك لاجتماع ركنى الاصابة لديه : صحة المقدمات وصحة التفكير . ومن هنا كانت علومه الرياضية أصح تراث منه وصل الينا . أما إذا أخطأه التوفيق فى المقدمات فلا تسل عن العجائب والغرائب التى كان يؤدى به اليها قياسه الصحيح من مقدماته العليلة . أنظر اليه وهو يحكم على شكل العالم أنه كرى لأن شكل الكرة أكمل الأشكال ، أو يحكم على العالم أنه حى عاقل لأن ما هو حى وعاقل خير مما ليس بحى ولا عاقل . وتأمل ما جر اليه القول بحياة العالم وعقله من القول بأفلاك ذات نفوس وعقول كل فلك منها نشأت نفسه وعقله عن نفس الفلك الذى فوقه وعقله ، وأشباه هذا مما يعجب له العلم اليوم كيف أمكن أن يتورط فيه العلم بالأمس ، إذ العلم والفلسفة كانا شيئاً واحداً فى العصر القديم

هذا النوع من التفكير الوهمى قد سد العلم الحديث بابه ، وقطع أسبابه بايجابه أولا عدم قبول شىء على أنه حق حتى يقوم عليه البرهان القاطع ، وبرجوعه ثانيا الى التجربة والمشاهدة فى تمحيص المقدمات . هذان هما المبدآن اللذان قامت عليهما الطريقة العلمية الحديثة ، واللذان يرجع الى التزامهما والتشدد فى تطبيقهما كل ما وصل اليه الانسان من تقدم فى ميادين العلم الحديث

فأما المبدأ الأول مبدأ اشتراط قيام الدليل القاطع على صحة القضية قبل ادخالها فى دائرة الحق فهو مبدأ سلبى ، ولكنه فى غاية الخطورة لأنه حال دون الخلط بين الحق والباطل ، وميز دائرة الشك من دائرة اليقين ، وجعل العلم على بينة من أمره فصار يعرف تماما أين هو من الحق ومن الباطل : صار يعرف أى القضايا هو فوق الشك وأيها فى حاجة الى التمحيص

لكن هذه المعرفة لم تكن لتغنى عنه كثيرا لو لم يجد العلم وسيلة صادقة لتمحيص ما هو منه فى شك ، فيزيد باطراد فى دائرة الحق المعلوم ، وينقص باطراد من دائرة المجهول . لكنه وجد هذه الوسيلة فى مبدئه الثانى مبدأ التجربة والمشاهدة . وهو كما ترى مبدأ إيجابى يقوم بجوار مبدئه السلبى الأول : يحرس الأول منطقة الحق أن يدخلها باطل ، ويوسع الثانى حدود المنطقة باستمرار . ولقد اقتضى هذا أن يقصر العلم نفسه من ميادين البحث على ما يمكن الاحتكام فيه الى التجربة والمشاهدة ، أو كما عبر بعض العلماء فأحسن التعبير على الميادين التى يستطيع أن يسأل فيها الانسان الفطرة فتجيب . والفطرة على حد تعبير عالم آخر دائماً تجيب إذا أحسن الانسان سؤالها . وأكبر الفرق من الناحية العملية بين العلم القديم والعلم الحديث أن هذا عرف كيف يحسن استجواب الفطرة ، وأن ذاك فى الأوقات القليلة التى خطر له أن يسترشد بالفطرة لم يعرف كيف يحسن سؤالها باجراء التجارب المنظمة ، وإن عرف أحياناً كيف يسمع لها بمشاهدة بعض ما يجرى حوله . وبالجملة فان أكبر ما يميز العلم فى عصره الحديث عن مثله فى العصر القديم هو اجماع أهله على

باع ذينك الأصلين : أصل التفرقة التامة بين اليقيني وغير اليقيني ، أصل تمحيص غير اليقيني بعرضه على التجربة والاختبار

هذان الأصلان اللذان هما قوام الطريقة العلمية ، واللذان إليهما يرجع كل ما أدرك العلم في ميدانه من تقدم ، ما شأنهما في الاسلام كما يتجلى في القرآن ؟

إن الذي أنزل القرآن روحاً من أمره وهدى يهدي به الانسانية سبل الحياة شاءت رحمته بعد أن جعل العقل أصل الأصول في النظر ألا يكل الانسان إلى عقله من غير أن يبين له معالم الطريق ويحذره مهاوي الخطأ والضلال . فهو أولاً يوجب على الانسان في القرآن ألا يُدخل في الحق إلا ما قام عليه البرهان والدليل أنه من الحق (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) وفي هذه الآية الكريمة نرى كيف ينبه الله الانسان إلى أن الظن والتخمين ليسا من العلم والبرهان في شيء ، وهو معنى لقي توكيداً عظيماً في القرآن بوروده صريحاً في أكثر من آية . (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ، وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً) . (وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً . إن الله عليم بما يفعلون) ، وهذا بالضبط هو ما اهتدى اليه العلم الحديث وشدد من أجله في وجوب التفرقة بين الثابت الذي لا شك فيه ، وغير الثابت الذي هو في حاجة إلى التمحيص ، ومن هنا ترى أن التطابق تام في هذه الناحية أيضاً بين العلم وبين الاسلام

على أن هذا ليس هو كل ما وضح به القرآن سبيل الحق أمام الانسان ، فانه كما حذره من الخلط بين الحق والباطل ، ومن إنزال الظن والتخمين منزلة البرهان واليقين ، دله على الطريق العملي الذي يتبين به وجه الحق فيما هو فيه من شك : طريق استعمال العقل لا السمع والبصر . ومن العجيب أنك لا تكاد تجد في القرآن ذكراً للسمع والبصر إلا والعقل مقرون بهما مذكور معهما كأنما يريد الله أن ينبه الانسان إلى ما بينهما وبين العقل من ترابط ، فالعقل لا يتم إلا بأثرهما وهما لا ينفعان نفعهما إلا إذا كان العقل من ورائهما يوجههما وينظم عملهما ، أو كأنما يريد الله سبحانه أن ينبه الانسان إلى أن ما يكسب من علم أو معرفة راجع في صميمه إلى هذه الثلاثة ، وأن عليه إذن أن يحسن استعمالها ويحذر إهمالها . على أن الانسان لم يترك في هذا إلى مجرد الاستنتاج . فقد أنبأه الله صراحة في القرآن في معرض المن عليه أن علم الانسان مصدره السمع والبصر والعقل كما ترى في آية النحل : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) ، وأوجب عليه في آيات كثيرة أن يحسن استعمال سمعه وبصره وعقله ، نذكر منها آية واحدة هي فصل الخطاب في هذا الباب ألا وهي قوله تعالى من سورة الأعراف : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) فانه ليس هناك أكثر حضاً على إحسان استعمال العقل وأدواته من هذه الآية الكريمة التي لم تكتف بتسوية الانسان بالبهيمة أو جعله شراً منها إذا هو أهمل عقله وسمعه وبصره ، بل أنذرته أبلغ إنذار أنه إن فعل ذلك فقد هلك إلى الأبد وحشر نفسه في زمرة أهل النار

فهذا أصل التجربة والمشاهدة قد لقي في صميمه من التوكيد في الاسلام ما يصغر بجانبه ما لقي من التوكيد في العلم وإن كان هو قوام العلم الحديث . والسر في هذا أن العلم لا يزال في الدور الذي يدرس فيه الفطرة ابتغاء الوقوف على أسرارها فحسب ، أما الدين فيأمر باستكناه أسرار الفطرة ليزداد الانسان بها هدى إلى رب الفطرة الذي فطرها وفطره ، والانسان إن لم يهتد إلى ربه فانه لا محالة من الهالكين . ومهما يكن من اختلاف الغاية بين الدين والعلم فان كل غاية العلم هي بعض غاية الدين ، والطريق الذي يسلكه العلم إلى غايته هو جزء من الطريق الذي يأمر بسلوكه الاسلام

على أننا نحب أن نزيد هذا التطابق بين الطريقين توكيداً بالتنبيه إلى آية واحدة في القرآن جمعت للانسان أصول النظر العلمي وأثبتتها من الدين مجتمعة بعد أن أثبتها من الدين متفرقة ، تلك هي قوله تعالى من سورة الأسراء : (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) فانها

من ناحية تأمر الانسان بالوقوف عند حد ما يعلم (ولا تقف ما ليس لك به علم) ومن ناحية أخرى تدله على طريق استبانة الحق فيما لا يعلم ، والاستمساك بما يتبين له من الحق عن ذلك الطريق ، طريق إحسان استعمال السمع والبصر والعقل (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً) وفي قوله سبحانه (كل أولئك كان عنه مسئولاً) في موقعها من الآية تقرير مسئولية الانسان عند ربه عن حواسه وعقله كيف لم يستعملهن عند الشك حتى يتبين وجه اليقين ، وكيف حين استعملهن لم يحسن استعمالهن ، أم كيف وقد أحسن استعمالهن لم يستمسك بما وصل اليه من الحق عن طريقهن حتى صار هو ومن أهلهن سواء . ولو حاول العلم أن يزيد في توكيد أصوله على هذا ما استطاع ، ثم هو ليس ببالغ شأو الدين في هذا التوكيد لأنه لا يملك لمهمل أصوله حساباً ولا عقاباً

* * *

وبعد ، فلعلنا نكون قد وفينا هذا الموضوع الخطير بعض حقه من البحث ، وبلغنا الغرض الذي بدأنا هذا البحث من أجله، وأثبتنا أن العلم الحديث بينه وبين الاسلام كل ما بين الجزء والكل من تطابق ما دام قد ثبت أنه قرآني الموضوع والاسم والروح والطريقة ؛ فهو بجملته وتفصيله قطعة من الاسلام ، حتى فروضه العلمية ونظرياته التي يتلمس بها سنن الفطرة لها في الاسلام متسع ، لأنها ليست الا ضربا من الاجتهاد الذي يثيبه الله عليه المجتهد ، أخطأ أم أصاب . وهذا التطابق العجيب بين العلم والاسلام هو الذي كان متوقعاً ما دام الاسلام هو دين الفطرة ، وما دام العلم قد أصاب الفطرة وإن في بعض نواحيها . وليس يمنع العلم أن يصيب الفطرة في بعضها الآخر المتعلق بحياة الانسان الاجتماعية . الا أن هذه الحياة خارج نطاقه ، وستظل كذلك لامتناع إخضاع الفرد بله الجماعة للتجربة العلمية والاختبار . فليس هناك للانسانية إذن أي أمل في أن تصيب سنن الفطرة في الاجتماع عن طريق العلم ، فهي لن تزال في مدنيتها بعيدة عن سنن الفطرة وعن سبل السلام حتى تقيم وجهها للدين حنيفاً (فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله)

محمد أحمد الغمراوي

أعلام الاسلام

محمد بن شهاب الزهري

بقلم السيد ناجي الطنطاوي

محمد بن شهاب الزهري ، علم من أعلام التابعين ، واماء جليل من أئمة المسلمين ، روى الحديث عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أبناء أصحابه . وكان نادرة في الذكاء وقوة الحافظة والصبر على طلب العلم ، ثقة ، أميناً في الاسناد شهد له الخلفاء والعلماء بالتفوق والفضل حتى قال ابن تيمية : حفظ الزهري الاسلام نحواً من سبعين سنة ، وكان مع ذلك سخياً كريماً يبذل ماله في سبيل العلم

اسمه ونسبه ومولده

هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله ابن الحارث بن زُهرة بن كلاب بن مرة[1] ، أبو بكر القرشي الزهري . سمي بالزهري نسبة الى زهرة بن كلاب ، كان أبو جده عبد الله بن شهاب شهد مع المشركين بدرا ، وكان أحد النفر الذين تعاقدوا يوم أحُد لئن رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلنّه أو ليقتلنّ دونه . وقد سئل الزهري مرة : هل شهد جدك بدرا ؟ قال نعم ، ولكن من ذلك الجانب ! أي من جانب قريش

وانتسب الزهري مرة أمام هشام بن عبد الملك ، فقال له هشام : ان كان أبوك لنفّارا في الفتن ، فقال : يا أمير المؤمنين عفا الله عما سلف

وقال : نشأت وأنا غلام ، ولا مال لي ، منقطع الديوان ، فكنت أتعلم نسب قومي من عبد الله بن ثعلبة ، وكان عالماً بنسبهم وهو ابن أختهم وحليفهم

وقال ابن حبيب : لم يكن له كتاب الا كتاب فيه نسب قومه ، أما سنه وولادته فلم تعلم على وجه الصحة لاختلاف

(١) مرة أبو قبيلة كبيرة من قريش ، منها آمنة بنت وهب والدة رسول الله صلى الله عليه وسلم